الى أن يسكت، وذلک عند من کان مغتاظاً يکون أکثر و اوفر.

وقال بعضهم فی قوله تعالی: ﴿ولا طعام إلّا من غسلين﴾ (الحاقة(٦٩): ٣٦) إنّی أراهم يأکلونه عياناً.

وقال العلامة الدوانی: سمعت من أستاذی العالم العامل، محی الملّة والدين، محمد الأنصاری ـ نقلا عن بعض من لاقاه من الثقات ـ: إنّه کان فی بعض نواحی فارس بعض من الأولياء، فدخل عليه ذات يوم واحد من أهل الدنيا، وکان ذلک الولی مستغرقاً فی حالته، فلمّا نظر عليه قال لخادمه:

أخرج هذا الحمار. ولم يکن يری منه إلّا صورة الحمار التی هی صورته فی المواطن الأخروی، ثمّ بعد أن زال عن هذا الحال أخبره الخادم بما جری فقال: «ما قلت إلّا ما رأيت، ولم أکن واقفاً علی ما تقول». ومثل هذه الحکاية منقول عن کثير من المکاشفين.

المقالة العشرون
فی قوله تعالی: ﴿هم فيها خالدون﴾

وفيه مناظر:

المنظر الأوّل
فی فائدة لفظ «الخلود» هاهنا

اعلم أنّ بعض الممکورين بالعقل ـ من ضلال الملاحدة وجهّال الفلاسفة والطباعيّة وغيرهم ـ لفرط غفلتهم وغلبة مغاليط ظنونهم قد ظنّوا أنّ قبائح أعمالهم وفضائح أفعالهم وأقوالهم لا يؤثر فی صفاء أرواحهم وتغيّر أحوالهم، فاذا فارقت الأرواح الأجساد يرجع کلّ شیء الی أصله، فالأجساد ترجع الی العناصر، والأرواح ترجع الی حظائر القدس، و لايزاحمها شیء من نتائج الأعمال إلّا أيّاماً معدودة، کما حکی اللّه عنهم فی قوله: ﴿وقالوا لن تمسّنا النار إلّا أيّاماً معدودة﴾ (البقرة(٢): ٨٠) وذلک بقدر فطام الأرواح عن لبان التمتّعات الحيوانية.

وهذا ظنّ فاسد وکفر صريح من وساوس الشيطان وهواجس النفس وليس بمعقول، لأنّ العاقل يشاهد حسّاً وعقلا أنّ تتبّع الشهوات الحيوانية واستيفاء اللذات النفسانية يورث الأخلاق الذميمة من الحرص والحقد والحسد والبغض والغضب والبخل والکبر والکذب

وغير ذلك ، و أنّ الذى يرتاض نفسه بالمجاهدات وترك الشهوات ونهى الهوى عن المألوفات والمستلذّات ، ويمنعها من الأخلاق المذمومات ، يورث هذه المعاملات مكارم الأخلاق وصفاء القلب ودقّة النظر وصدق الفراسة واصابة الرأى ونور العقل وعلوّ الهمّة وخلوّ السرّ عن محبّة الباطل وشوق الروح الى درك الحق وتحنّنه الى وطنه الأصلى وغير ذلك من المقامات العلية والأحوال السنية .

فالعاقل لايشك فى أنّ الروح المتّبع للنفس الأمّارة ـ كما يكون للعوام ـ لا يكون مساوياً بعد المفارقة مع الروح المتّبع لالهامات الحق ـ كما يكون للخواص ـ كقوله تعالى : ﴿أفمن يمشى مكبّاً على وجهه أهدى أمّن يمشى سوياً على صراط مستقيم﴾(الملک(٦٧) : ٢٢) .

وبعضهم قالوا : وإن تكدّرت الأرواح بقبائح أعمال الأشباح و تدنّست بقدر تعلّقها بمحبوبات طباعها ، فبعد المفارقة بقيت فى العذاب أياماً معدودات على قدر انقطاع التعلّقات عنها وزوال الكدورات ، ثمّ يتخلّص من العذاب و يرجع الى حسن المآب .

وهذا ايضاً وهم فاسد وخيال كاسد ، فكذبهم بقوله : ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئک أصحاب النار هم فيها خالدون﴾(البقرة(٢) : ٨١) يعنى من كسب سيئة يظهر بقدرها على مرآة قلبه ريناً ، فان تاب محى عنه ، و إن لم يتب ويصير على السيئات حتى أحاطت بمرآة قلبه رين سيئاته بحيث لايبقى فيه صفائه الفطرى ، وخرج منه نور الايمان و ضياء الطاعات ، فأحبط أعماله الصالحات وأحاطت به الخطيئات ، فهو خالد فى النار مؤبداً ، يدلّ على هذا قوله : ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾(المطففين(٨٣) : ١٤) .

المنظر الثانى
فى بيان أنّ منشأ الخلود فى النار هو الكفر لاغير
خلافاً للمعتزلة القائلين بأنّ صاحب الكبيرة يخلّد فى النار

والتحقيق فى هذا أنّ رؤساء أتباع الشيطان فى خلقة الانسان كما مرّ ثلاثة : القوة الوهميّة التى هى رئيس المدارک الجزئيّة الحسيّة ، ينبعث منها الشوق الى اللذات النفسانيّة ، والقوة الشهويّة التى هى رئيس سائر القوى الخياليّة للمقاصد الحيوانيّة الصارفة للنفس عن طريق الاخرة والمطالب الأخرويّة ، والقوة الغضبيّة التى هى منشأ الموذيات الضارة ومبدأ الجناية والجور والقهر والغلبة على بنى النوع والجنس .

وكلّ منها يدعو الانسان بحسب طبعها وناريّتها المكمونة فيها، فاذن هى كأنّها نيرانات كائنة فى أحجار كبريتيّة، وقودها المشتهيات من ملاذّ الدنيا ونعيمها، واستعمال تلك النيران عند الوقود كأنّها حريق لايطفىء ولهب لايخمد، كأمواج بحر متلاطمة أو كرياح عاصفة تدمر كلّ شىء.

أو لاترى أنّ حرارة شهوة المأكولات عند الجوع كأنّها لهيب نيران لايطفى، وحرارة شهوة المنكوحات عند هيجان الحركة كأنّها حريق نار ترمى بشرر كالقصر، وحرارة نار الكبر والغضب كأنّها تدعى الربوبيّة، وحرارة نار الافتخار والمباهات كأنّها أعلى موجود وأفضل معبود، والناس عبيد و خدم لها.

إلّا أنّ منبع جميع هذه النيرانات وكبريت هذه الشعلات هى «القوّة الوهميّة» التى هى مبدء الغواية والضلالة والمغالطة وسوء الظن و الداعى الى الشرّ بكفره وغلطه وتغليطه و وسوسته، فانّ «الوهم» ما لم يتروّج الباطل فى صورة الحق لم ينبض عرق الجاهليعة والقباحة فى شىء من القوى، فهو أوّل من قرع باب الكفر والانكار والجحود و العناد والاستكبار، ثمّ عمل بوفقه القوى العمّالة التى هى من توابعها، كما قال اللّه تعالى: ﴿ألم تر الى الذين بدّلوا نعمة اللّه كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار *جهنّم يصلونها فبئس القرار﴾ (ابراهيم(۱۴): ۲۹).

و إنّما عظّم اللّه تعالى أمر الأفعال القبيحة المنسوبة الى المبدأ الادراكى الوهمى ما لم يعظّم فى قبائح أفاعيل القوى الغضبيّة كالقتل، والشهويّة كالزنا وأمثالهما، أو لاترى أنّه قدعظّم أمر الافک فى الوعيد ما لم يغلظ فى غيره، حيث قال: ﴿إنّ الذين جاؤا بالافک لاتحسبوه﴾ (النور(۲۴): ۱۱) فبالغ عليه بما لم يبالغ فى باب الزنا وقتل النفس المحرمّة، لأنّ عظم الرذيلة وكره المعصية إنّما يكون على حسب القوّة التى هى مصدرها، فيتفاوت حال الرذائل فى حجب صاحبها عن الحضرة الالهيّة والأنوار القدسيّة وتوريطه فى المهالک الهيولانيّة والمهاوى الظلمانيّة على حسب تفاوت مباديها، فكلّما كانت القوّة التى هى مصدرها ومبدئها أشرف كانت الرذيلة الصادرة منها أردأ أو بالعكس، لأنّ الرذيلة ممّا يقابل الفضيلة، فكلّما كانت الفضيلة أشرف كان مايقابلها من الرذيلة أخسّ، والافک رذيلة القوة الناطقة الوهمانيّة، والزنا رذيلة القوة الشهويّة، والقتل رذيلة القوة الغضبيّة فبحسب فضل الأولى على الباقين تزداد ردائه رذيلتها ودوام عقابها.

وذلک أنّ الانسان إنّما يکون انساناً بالأولى وبها يکون ترقيه الى العالم العلوى وتوجهه الى الجناب الالهى، وتحصيله للمعارف والکمالات، واکتسابه للخيرات والسعادات، وإذا فسدت بغلبة الشيطان عليها واحتجبت عن النور باستيلاء الظلمة، ونزلت عن رتبة الأرواح الى درجة الشيطان، حصلت الشقاوة ووجبت العقوبة بالنار الکبرى، وهو الرين والحجاب الکلى ﴿کلّا بل ران على قلوبهم ما کانوا يکسبون* کلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين(٨٣): ١٤ـ١٥)

ولهذا حکم على الکفار بالخلود فى النار فى قوله: ﴿هم فيها خالدون﴾ فبان دوام العذاب وخلود العقاب بفساد الاعتقاد، دون فساد الأعمال، فانّ لصفات الناشية من الأعمال و إن کانت نفسانيّة إلّا أنّها کالعوارض، والفساد فى العارض للشىء يرجى زواله بخلاف سوء الاعتقاد فى اللّه وحقائق الملکوت وانکار المعاد وانکار الأنبياء والأولياء، والجهل بأحوالهم وطريقهم الى الحق، فانّه داخلة فى قوام الروح کما قرّرناه، والفساد فى ذات الشىء وقوامه يوجب الهلاک، وموت الروح بالجهل لاينافى بقاء النفس المنکوسة لأجل خلود العقاب کما هو التحقيق عند أرباب الحکمة الايمانية.

فرذيلة الناطقة النفسانية الانسانية توجب خلود العقاب بخلاف رذيلة القوتين الباقيتين، کما قال اللّه تعالى: ﴿إنّ اللّه لايغفر أن يشرک به ويغفر مادون ذلک لمن يشاء﴾ (النساء (٤): ٤٨).

وذلک لأنّ رذيلة کلّ منهما إنّما تصدر بظهورها على القوة النطقيّة، ثمّ ربّما محيت بانقهارها وتسخرها لک عند سکون هيجانها وفتور سلطانها باستيلاء غلبة النور وتسلطها عليها بالطبع، کحال النفس اللوامة عند التوبة والندامة.

و إن فرض أنّها بقيت فى الاضرار وترک الاستغفار، ولکن لاتبلغ رذيلتها مقام رذيلة الروح الذى هو محل معرفة اللّه و مناجاة الرب، ولاتتجاوز حدّ الصدر ولاتصير الفطرة بها محجوبة والحقيقة منکوسة، بخلاف رذيلة الناطقة، ألا ترى أنّ الشيطنة المعنوية للأولى أبعد عن الحضرة الالهيّة من السبعية والبهيمية بما لايقدر قدره. فالانسان برسوخ الرذيلة النطقية يصير شيطاناً مريداً و الشيطان الذى هو ابليس إنّما کان أبعد الخلق عن اللّه تعالى، وموضع اللعن هو ابليس ومظهر اسم «المضل»؛ لأنّه کان جبرئيل الأصل، فبالجهل المرکّب انقلب عن کونه ملکاً کريماً الى کونه شيطاناً لعيناً، وبرسوخ الرذيلتين الآخريين يصير حيواناً

كالبهيمة أو السبع، وكلّ حيوان أرجى صلاحاً وأقرب فلاحاً من الشيطان، ولهذا قال تعالى ﴿هل أنبّئكم على من تنزل الشياطين*تنزل على كلّ أفّاك أثيم﴾(الشعراء(٢٦): ٢٢١ـ ٢٢٢) وذلك لكونه أبعد عن قبول التغيّرات والاستحالات، بخلاف الحيوان لكونه أقرب الى أفق ما يتغير ويستحيل فينجو عن العذاب.

فثبت ممّا ذكرنا أنّ ذنوب القوة النطقية ومعاصيها أعظم عند اللّه من ذنوب القوة الجسمانية، وأمّا عند جمهور الناس حيث يكون نظرهم مقصورة على الأمور المحسوسة فالأمر بعكس ذلك، ولهذا المعنى قال سبحانه فى باب الافك: ﴿وتحسبونه هيّناً وهو عنداللّه عظيم﴾(النور(٢٤): ١٥).

فعلم ممّا ذكرنا فساد مذهب المعتزلة والزيدية القائلين بخلود صاحب الكبيرة مطلقا فى النار، وقد أشرنا سابقاً أنّ ضرباً من الكبائر التى توجب للنفس رذيلة نطقية راسخة أو يكون نفس تلك المعصية كاشفة عن ذلك كصدور بعض المعاصى من بعض الناس فى بعض الأمكنة والأزمنة، مثل شيخ كبير السن فى زمرة المنتسبين الى العلم يباشر الملاهى والغنا عند جوار الروضات المقدسات فمثل هذه المعصية وإن كانت من ذنوب القوى الحيوانية إلّا أنّها دالة على فساد الاعتقاد بحرمة الرسول وأولاده الامجاد عليهم عظائم التسليمات من الملائكة الجواد، فمنشأ الخلود فى العقاب بالحقيقة ليس إلّا رذيلة الناطقة كالكفر ومايوجبه.

المنظر الثالث
فى تقرير الجواب عن حجة من يعتقد اشتراك أصحاب الكبائر مع الكفار فى الخلود فى النار كالمعتزلة وغيرهم

اعلم أنّ فى اثبات الوعيد لأصحاب الكبائر ـ غير الكفر باللّه وآياته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ـ إذا ماتوا قبل التوبة خلافاً لأهل القبلة وبين علماء الاسلام:

فمنهم من قطع لوعيدهم إمّا مخلّداً ـ وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج و إمّا منقطعاً ـ وهو قول البشر المريسى والخالدى ـ ومنهم من قطع بأنّه لاوعيدلهم وينسب الى مقاتل بن سليمان المفسّر.

والذى عليه أكثر المحققين والصحابة والتابعين وأصحابنا الامامیّة وأهل السنة

القطع، لجواز العفو عنه تعالى، وبأنّه سبحانه يعفو عن بعض العصاة وأنّه إذا عذب أحداً منهم فلايعذبه أبداً، ولكنّا نتوقف فى حق البعض المعفو عنه والبعض المعذّب على التعيين.

أمّا المعتزلة كصاحب الكشاف وغيره فاستدلوا بأدلة سمعية كالعمومات الواردة فى وعيد الفساق كقوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئک أصحاب النار هم فيها خالدون﴾(البقرة(٢): ٨١)وقوله: ﴿إنّ كتاب الفجّار لفى سجين﴾(المطففين(٨٣): ٧) وقوله: ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى إنّما يأكلون فى بطونهم ناراً﴾(النساء(٤): ١٠).

ومن الحديث: «من شرب الخمر فى الدنيا ولم يتب منها لم يشربها فى الاخرة»[1]

و«من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة».

«الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة انما يجرجر فى بطنه نار جهنم».

وعن أبى سعيد الخدرى: قالﷺ«والذى نفسى بيده لايبغضنا أهل البيت رجل إلّا دخل النار»[2] وإذا استحقوا النار ببغضهم فلأنّ يستحقوا بقتلهم اولى.

و أجيب بالمنع من أنّ هذا صيغ العموم بدليل صحة ادخال الكلّ والبعض عليها، نحو: كلّ من دخل دارى فله كذا، وبعض من دخل، ولايلزم تكريره ولاتناقض، ولأنّ الأكثر قديطلق عليه لفظ الكلّ ولاحتمال المخصصّات.

والقاطعون بنفى العذاب عن الكبائر احتجوا بقوله تعالى: ﴿إنّ الخزى اليوم والسوء على الكافرين﴾(النحل(١٦): ٢٧)﴿يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة اللّه﴾(الزمر(٣٩): ٥٣)﴿وإنّ ربّک لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾(الرعد(١٣): ٦)﴿لايصليها إلّا الأشقى * الذى كذّب وتولّى﴾(الليل(٩٢): ١٥ـ١٦).

وبالعمومات الواردة فى الوعد مثل: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل اليک وما أنزل من قبلک﴾(البقرة(٢): ٤) حكم بالفلاح على كلّ من آمن.

وعورض بالعمومات.

وأمّا المحققون الذين قطعوا بالعفو فى حقّ البعض فقد تمسكوا بنحو قوله عزّ من قائل: ﴿إنّ اللّه لايغفر أن يشرک به ويغفر ما دون ذلک لمن يشاء﴾(النور(٢٤): ٣٥) وبأنّ عمومات

١. مسند أحمد، ج٢، ص٩٨؛ صحيح مسلم، ج٦، ص١٩٩؛ سنن ابن ماجة، ج٢، ص١١٢٠؛ تفسيرالرازى، ج٣، ص١٥١
٢. صحيح ابن حبان، ج١٥، ص٤٣٤؛ كنز العمّال، ج١٢، ص١٠٢

الوعد والوعيد لمّا تعارضتا فلابدّ من الترجيح الوعيد يوجب ترجيح الجانب الوعد بصرف التأويل، لأنّ العفو عن الوعيد مستحسن عند العقل، والمعتزلة أيضاً معترفون بأنّ العفو مستحسن عقلا إلّا أنّ النقل لم يساعده ـ على زعمهم ـ فاهمال الوعد يكون بالضد فترجيح لجانب المرجوح.

و أيضا القرآن مملو من نحو قوله: «غفوراً، رحيماً، كريماً» و كذا الأخبار فى هذا المعنى يكاد يبلغ حدّ التواتر.

وأيضاً أنّ صاحب الكبيرة أتى بما هو أفضل الخيرات ـ وهو الايمان ـ ولم يأت بما هو أقبح القبائح ـ وهو الكفر ـ فلا يهدمه ماسوى الكفر عن المعاصى ولهذا قال يحيى بن معاذ الرازى: «الهى إذا كان توحيد ساعة يهدم كفر خمسين سنة فتوحيد خمسين سنه كيف لايهدم معصية سنة، الهى لـمّا كان الكفر لاينفع معه شىء من الطاعات، كان مقتضى العدل أنّ الايمان لايضر معه شىء من المعاصى»[1]

فاذا دلّت الايات على الوعد والوعيد فلابدّ من التوفيق بينهما، فامّا أن يصل العبد الى دار الثواب ثمّ الى دار العقاب ـ وهو باطل بالاجماع ـ أو يصل اليه العقاب ثمّ ينقل الى دار الثواب ويبقى هنالك أبد الآباد ـ وهو المطلوب.

المنظر الرابع
فى تقرير الاشكال فى خلود العذاب بالنار لأهل النكال من الكفار والجواب عن هذا السؤال مايتأتى لأحد من المقال

اعلم أنّ فى تعذيب اللّه بعض عباده عذاباً أبدياً اشكالا عظيماً خصوصاً عند القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين، فانّ اللّه خالق العباد وموجدهم ومبدئهم ومعادهم، وشأن العلّة الفاعلة الافاضة والايجاد على معلوله، إذ ليس المعلول إلّا رشحة من رشحات جوده ولمعة من لمعات وجوده، والتعذيب الأبدى منافى الايجاد والعليّة.

وأيضاً فانّ ذاته محض الرحمة والخير والنور وكلّ مايصدر عنه يجب أن يكون من باب الجود و اللطف والكرم، ووجود العاهات والشرور إنّما يكون عنه بالعرض وعلى سبيل الشذوذ و الندور، ولأنّه «سبقت رحمته غضبه»[2]، فانّ الرحمة ذاتية والغضب أمر عارض

---

١. التفسير الرازى، ج٣، ص١٦٠

٢. الصحيفة السجادية، دعاؤه فى موقف عرفة، ص٣٤٥؛ مصباح المتهجّد، ص٤٤٢

والعرض الاتفاقی لایکون دائمیّاً ـ کما حقّق فی مقامه .

قال العلامة القیصری فی شرح الفصوص : «واعلم أنّ من اکتحلت عینه بنورالحق ، یعلم أنّ العالم بأسره عباد الله ، ولیس لهم وجود وصفة وفعل إلّا باللّه وحوله وقوته ، وکلّهم محتاجون الی رحمته وهو الرحمن الرحیم ، ومن شأن من هو موصوف بهذه الصفات أن لا یعذّب أحداً عذاباً أبدیّاً» . [1]

فهذا تقریر الاشکال ، ولصعوبته أنکر الشیخ محی الدین الاعرابی الخلود فی العذاب من اللّه تعالی لأحد من العباد زاعماً أنّه لیس فی شیء من الایات نصّاً لایقبل التأویل فی خلود التعذیب بالنار ، بل فی خلود الکون فیها للکفار .

قال فی الفص الیونسی من فصوص الحکم : «وأمّا أهل النار فمآلهم الی النعیم ولکن فی النار ، إذ لابدّ لصورة النار بعد انتهاء مدّة العذاب أن یکون برداً وسلاماً علی من فیها ، وهذا نعیمهم ، فنعیم أهل النار بعد استیفاء الحقوق نعیم خلیل اللّه علیه السلام حین ألقی فی النار ، فانّه علیه السلام تعذّب برؤیتها وبما تعود فی علمه وتقرر من أنّها صورة تؤلم من جاورها من الحیوان ، و ما علم مراد اللّه فیها ومنها فی حقّه ، فبعد وجود هذه الآلام وجد برداً وسلاماً مع شهود الصورة الناریة فی حقّه ، وهی نار فی عیون الناس ، فالشیء الواحد قد یتنوع فی عیون الناظرین» . [2]

وغایة ما یتأتی لأحد أن یقول فی التفصی عن هذا الاشکال : أنّ مراتب العذاب مختلفة بالاضافة الی الاحاد ، فربّ عذاب یکون شدیداً لأحد ضعیفاً لغیره ، ومراتب الشدة والضعف مختلفة باختلاف المشاعر والمدارک ، کما تجد هذه التفرقة فی الأشخاص المعذبین فی هذه الدنیا ، بل ربّ عذاب لأحد یکون راحة ولذة لآخر ، کما تری من اشتغال بعض الناس بأمور دنیّة ومناصب خسیسة یکون فیها غایة الألم والعذاب للنفوس الشریفة ، ومع ذلک یفتخرون بها ویباهون علی غیرهم .

کیف لا وجمیع الشهوات واللذات الدنیویّة عند أرباب المعارف الالهیّة یکون من قبیل الآلام والغموم ، ویکون مباشرتها والتلذذ بها کمباشرة الکناسی والاتونی بالروث والسرقین وتلذذ هم عن رائحتها ، کما انّ تنفّر أکثر الناس عن العلوم الحقیقیة والمعارف الالهیّة کنفر الجعل من روائح الورد .

---

۱ . شرح فصوص الحکم ، الفص الهودی ، ص۷۲۶

۲ . نفس المصدر ، الفص الیونسی ، ص۹۸۴

ثمّ إنّ «العذاب» كما قد يراد منه المعنى المصدرى أى: التعذب، كذا يراد منه اسم ما يتعذّب به كالنارمثلا، وهذا غير مستلزم لذاك، فالنصوص الواردة فى الخلود فى العذاب أيضا لو كانت مثل قوله تعالى: ﴿لايخفّف عنهم العذاب﴾ (البقرة(٢): ١٦٢) يمكن أن يأوّل فيها «العذاب» بالمعنى الاسمى لا المصدرى، وإن كان الثانى أظهر بحسب اللفظ.

ثمّ لايذهب على أحد أنّ الكون فى الجحيم غير مستلزم للعذاب الأليم، فانّ الزبانية والسدنة من سكانها ليسوا معذّبين بها كما مرّ ذكره آنفاً، والقول بانتهاء مدّة التعذيب للكفار وإن كان باطلا عند جمهور الفقهاء والمتكلمين وبدعة وضلالة لادعائهم تحقّق النصوص الجليّة فى خلود العذاب ووقوع الاجماع من الأمّة فى هذا الباب إلّا أنّ كلّا منها غير قطعى الدلالة بحيث تعارض الكشف الصريح أو البرهان النيّر الصحيح.

أمّا النص: فما من لفظ إلّا و يمكن حمله على معنى آخر غير ما هو الموضوع له بأحد الدلالات و إن كان الأصل والمعتبر هو المعنى المطابقى، لكن الكلام هنا ليس فى الأصل والترجيح، كما فى الفروعات الظنية التى يكفى للعمل بها مجرّد الأصل والرجحان، بل فى اليقينيّات التى لاينجح فيها إلّا العلم بالبرهان، والشهود بالعيان.

وأمّا الاجماع ـ وخصوصاً بالمعنى الذى ذهب اليه أصحابنا رضوان اللّه عليهم أجمعين ـ: فليعلم أنّ اجماع علماء الظاهر فى أمر يخالف مقتضى الكشف الصحيح، الموافق للكشف الصريح النبوى والفتح الصحيح المصطفوى ـ على الصادع به وآله أفضل الصلوات والتسليمات ـ لايكون حجة عليهم، فلو خالف من له هذه المشاهدة والكشف اجماع من ليس له ذلك لايكون ملاماً فى المخالفة ولاخارجاً عن قانون الشريعة، لأخذه ذلك عن باطن رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

فيجب على الطالب الايمان باللّه وكتبه ورسله وأوليائه واليوم الاخر والجنّة والنار والحساب والثواب والعقاب وعلى أنّ كلّ ما أخبروا به فهو حق وصدق لاشك فيه ولاشبهة تعتريه، والعمل بمقتضى ما أمروا به والانتهاء عمّا نهوا عنه على سبيل التقليد، لتنكشف له حقيقة الأمر ويظهر له السرّ المصون فى كلّ من المأمورات والمنهيّات عن علم ويقين، بل عن الشهود والعيان لابمجرّد التقليد والايمان، فيتفطن الى أمور أعلى منها فيزيد فى العبادة، كما كان يعبد رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فانّه قام الليل حتى تورمت قدماه، فقيل له فى ذلك: «إنّ اللّه

قد غفر لک ما تقدّم من ذنبک وما تأخر»فقال عليه وآله الصلوة والسلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟ ». [1]

اعلم أنّ الفقهاء وإن كانوا عالمين بأحكام اللّه إلّا أنّهم فى معرفة الذات و الصفات والأفعال الالهيّة كباقى المقلّدين من المؤمنين، بخلاف أهل التوحيد الشهودى، لشهودهم بالنور الالهى الحق وصفاته وأفعاله، وكيفيّة تصرفاته فى الوجود لايتطرق عليهم الشبهة ولايدخل فى قلوبهم الريبة ولايحكم عليهم الأوهام، ولايطرء على مرايا قلوبهم الرين والظلام، فهم الموحّدون حقاً والعارفون بربّهم صدقاً ويقيناً ـ لاظناً وتخميناً ـ.

فلايظنن أحد أنّ ورعهم فى أمور الدين واحتياطهم فى عدم القول فى مسألة شرعيّة بمجرّد الظن والتخمين يكون أقل من ورع غيرهم واحتياطه ـ هيهات هذا من بعض الظن ـ إنّما بلوغهم الى هذه المرتبة التى كانوا عليها بطاعة الشريعة وخدمة الدين واتّباع سيّد المرسلين عليه وآله أفضل صلوات المصلّين، بالذهن الصافى والقلب النقى الخاشع الخاشى عن الله، والضمير الخالص عن كلّ شوب وغرض.

وأنّى يوجد لغيرهم ما كان لهم، وهم فى الحقيقة أولياء اللّه وقوام الدين وفقهاء شريعة سيّد المرسلين، والحكماء فى معارف الحق واليقين، وهم فى الحقيقة ما وصفهم اللّه تعالى فى آية: ﴿يحبّهم ويحبّونه﴾(المائدة(۵): ۴۵) وهم الذين أمر اللّه رسولهﷺ بمجالستهم والصبر معهم فى السراء والضراء فى قوله: ﴿واصبر نفسک مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم﴾(الكهف(۱۸)۲۸)، وهم الذين رفع اللّه قدرهم عن سائر الأمة لقوله تعالى ﴿ولاتطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليک من حسابهم من شیء وما من حسابک عليهم من شیء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾(الأنعام (۶): ۵۲).

وهم الذين قال خاتم النبيين فى حقّهم تفخيماً وتعظيماً واجلالا وتكريماً لشأنهم: «إنّى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن» [2]، وهم الذين وصفهم أمير المؤمنين وسيّد الأوصياء الموحّدين فى حديث كميل بن زياد بما وصفهم.

فاذا كان حالهم على هذا المنوال من العلم والمعرفة والورع والتقوى، فالقدح من أحد

---

۱. الاحتجاج، ج۱، ص۳۲۶؛ عوالى اللئالى، ج۱، ص۳۲۶؛ مسند أحمد، ج۴، ص۲۵۱؛ صحيح البخارى، ج۶، ص۴۴
۲. فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج۴، ص۱۷۰؛ كشف الخفاء، ج۱، ص۲۱۷، ح۶۵۹

فیهم فی مسألة اعتقادیّة دینیّة یدلّ علی قصور رتبة القادح وسوء فهمه وقلة انصافه، بل الأولی له السکوت عمّا لایصل الیه عقله من درک مقالهم وفهم حالهم ـ واللّه أعلم بسرائر عباده وبواطن أقوالهم ـ.

قال القیصری[1]: «اعلم أنّ المقامات الکلیة الجامعة لجمیع العباد فی الآخرة ثلاث ـ وإن کان کلّ منها مشتملا علی مراتب کثیرة لاتحصی ـ وهی: الجنّة، والنار، والأعراف الذی بینهما ـ علی ما نطق به الکلام الالهی ـ ولکلّ منها اسم حاکم علیه یطلب بذاته أهل ذلک المقام، لأنّه رعایاه وعمارة ذلک الملک بهم.

والوعد شامل للکلّ، إذ وعده فی الحقیقة عبارة عن ایصال کلّ واحد منها الی کماله المعین له أزلا، فکما أنّ الجنة موعود بها کذلک النّار والأعراف موعود بهما.

والایعاد أیضاً شامل للکلّ، فانّ أهل الجنّة یدخلون الجنّة بالجاذب والسائق، قال اللّه تعالی: ﴿وجائت کل نفس معها سائق وشهید﴾(ق(۵۰): ۲۱)والجاذب: المناسبة الجامعة بینهما بواسطة الأنبیاء والأولیاء، والسّائق: هو الرحمن بالایعاد والابتلاء بأنواع المصائب والمحن، کما أنّ الجاذب الی النار: المناسبة الجامعة بینهما وبین أهلها، والسائق: الشیطان، فعین الجحیم موعود لهم لامتوعد بها.

والوعید: هو العذاب الذی یتعلّق بالاسم «المنتقم» وتظهر أحکامه فی خمس طوائف لاغیر، لأنّ أهل النار إمّا مشرک أو کافر أو منافق أو عاص من المؤمنین، وهو ینقسم الی الموحّد العارف الغیر العامل، والمحجوب، وعند تسلط سلطان «المنتقم» علیهم یتعذّبون بنیران الجحیم، کما قال تعالی: ﴿أحاط بهم سرادقها﴾(الکهف(۱۸): ۲۹)﴿ونادوا یا مالک لیقض علینا ربّک﴾(الزخرف(۴۳): ۷۷)﴿لا یخفّف عنهم العذاب ولاهم ینظرون﴾(البقرة(۲): ۱۶۲)وقال: ﴿إنّکم ماکثون﴾(الزخرف(۴۳): ۷۷)﴿اخسئوا فیها ولاتکلّمون﴾(المؤمنون(۲۳): ۱۰۸).

فلمّا مرّ علیهم السنون والأحقاب و اعتادوا بالنیران ونسوا نعیم الرضوان قالوا: ﴿سواء علینا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محیص﴾(ابراهیم(۱۴): ۲۱)فعند ذلک تعلّقت الرحمة بهم ورفع عنهم العذاب، مع أنّ العذاب بالنسبة الی العارف الذی دخل فیها بسبب الأعمال التی تناسبها عذب من وجه وإن کان عذاباً من وجه آخر، کما قیل:

وتعذیبکم عذب وسخطکم رضی — وقطعکم وصل وجورکم عدل

---

۱. شرح فصوص الحکم، ص۶۶۱

لأنّه يشاهد المعذّب فی تعذيبه، فيصير التعذيب سبباً لشهود الحق، وهو أعلى مايمكن من النعيم حينئذ فی حقه.

وبالنسبة الى المحجوبين الغافلين عن اللذات الحقيقية أيضاً عذب من وجه كما جاء فی الحديث: «إنّ بعض أهل النار يتلاعبون فيها بالنار» و«الملاعبة» لاتنفک عن التلذذ وان كان معذّباً لعدم وجدانه ما أمن به من جنّة الأعمال التی هی الحور والقصور.

وبالنسبة الى قوم يطلب استعدادهم البعد من الحق والقرب من النار وهو المعنى بجهنّم أيضاً عذب، وإن كان فی نفس الأمر عذاباً كما يشاهد هاهنا ممّن يقطع سواعدهم ويرمی أنفسهم من القلاع ـ مثل بعض الملاحدة ـ ولقد شاهدت رجلا سمّر فی أصول أصابع احدی يديه خمسة مسامير غلظ، كلّ مسمار مثل غلظ القلم، واجتهد المسمر ليخرجه من يده فما رضی بذلک، وكان يفتخر به وبقی على حاله الى أن أدركه الأجل.

وبالنسبة الى المنافقين الذين لهم استعداد بالكمال واستعداد النقص، وإن كان أليماً لادراكهم الكمال وعدم امكان وصولهم اليه، لكن لمّا كان استعداد نقصهم أغلب رضوا بنقصانهم وزال عنهم تألمهم بعد انتقام «المنتقم» منهم بتعذيبهم، وانقلب العذاب عذباً، كما نشاهد ممّن لايرضی بأمر خسيس أولا، ثمّ إذا وقع فيه وابتلی به وتكرّر صدوره منه تألّف به واعتاد، فصار يفتخر به بعد أن كان يستقبحه.

وبالنسبة الى المشركين الذين يعبدون غير اللّه من الموجودات فينتقم منهم «المنتقم» لكونهم حصروا الحق فيما عبدوه وجعلوا الاله المطلق مقيّداً، وأمّا من حيث أنّ معبودهم عين الوجود الحق الظاهر فی تلک الصورة فما يعبدون إلّا الله، فرضی اللّه عنهم من هذا الوجه، فينقلب عذابهم عذباً فی حقّهم.

وبالنسبة الى الكافرين أيضاً و إن كان العذاب عظيماً لكنّهم لم يتعذّبوا به لرضاهم بما هم فيه، فانّ استعدادهم يطلب ذلک، كالاتونی الذی يفتخر بما هو فيه، وعظم عذابه بالنّسبة الى من يعرف أنّ وراء مرتبتهم مرتبة، و أنّ ما هم فيه عذاب بالنسبة اليها.

وأنواع العذاب غير مخلّد على أهله من حيث إنّه عذاب، لانقطاعه بشفاعة الشافعين «وآخر من يشفع هو أرحم الراحمين»[1] كما جاء فی الحديث الصحيح، لذلک ينبت الجرجير فی قعر جهنّم لانفطاء النار وانقطاع العذاب، وبمقتضی «سبقت رحمتی غضبی»، فظاهر

---

١. شرح الأسماء الحسنی، ج١، ص٦۴

الآيات التى جاء فى حقّهم بالتعذيب كلّها حق، وكلام الشيخ ـ رضى اللّه عنه ـ لاينافى ذلک، لأنّ كون الشىء من وجه عذاباً لاينافى كونه من وجه آخر عذباً.[1]

المنظر الخامس
فى ذكر جملة من خواص أولياء اللّه وعلاماتهم وخواص أولياء الطاغوت وعلاماتهم، ليعرف الانسان أحوال المؤمن الحقيقى من أحوال المنافق، لينكشف لميّة كون أحدهما من أهل اللّه وأهل النور، وكون الثانى من أهل الطاغوت وأهل النار

أمّا أحوال أولياء الله ـ وهم المؤمنون حقّاً ـ فمنها ما ذكره اللّه تعالى بقوله: ﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربّهم يتوكلون﴾ (الأنفال(۸): ۲) معناه أنّ المؤمن الحقيقى والعارف اليقينى الذى كتب اللّه بقلم العناية فى قلبه الايمان، وأيّده بروح منه فهو على نور من ربّه، فاذا ذكراللّه وجل قلبه، فانّ وجل القلب عند سماع ذكراللّه من خصوصية المعرفة والحكمة باللّه و صفاته و أفعاله، إذ الحكمة هى النور المنبسط الايمانى الذى قذف اللّه فى قلوبهم، ومن شأن نور الايمان أن يرق القلب و يصفيه عن كدورات صفات النفس وظلمتها، ويلين قسوته فتلين الى ذكر اللّه و يحن شوقاً الى الله.

وهذا حال أهل البدايات، أمّا حال أهل النهايات فهى الطمأنينة والسكون بالذكر، لقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكراللّه ألا بذكراللّه تطمئن القلوب﴾ (الرعد(۱۳): ۲۸).

وقال ﷺ ـ فيما روى عنه ـ: «إنّ أحبّ القلوب الى اللّه أصلبها فى دين اللّه وأصفاها عن[2] الذنوب، وأرقّها على الاخوان[3]، و إذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً «فجعل من شروط

۱. وليعلم أنّ المصنف ـ قدّس سرّه ـ فى كتابه «الحكمة العرشية» ـ الذى قيل أنّه آخر مصنفاته ـ صرح بدوام الخلود وتسرمد العذاب حيث قال:

«وأمّا أنا والذى لاح لى بما أنا مشتغل به من الرياضات العلمية والعملية أنّ الجحيم ليست بدار نعيم، وإنّما هى موضع الألم والمحن، وفيها العذاب الدائم، ولكن آلامها متفننة متجددة على الاستمرار بلا انقطاع، والخلود فيها متبدلة وليست هناک موضع راحة واطمئنان».

وكما أشار فى أواسط المنظر الرابع بقوله: «فيجب على طالب الايمان على سبيل التقليد أن يشک فيه حتى ينكشف له حقيقة الأمر ويظهر له السرّ المصون...»

۲. فى المصدر: من

۳. فقه الرضا، ص۳۸۱؛ بحار الأنوار، ج۶۷، ص۵۶، ح۲۶

الايمان الحاصل فى القلوب ازدياده عن سماع القرآن وتلاوته، لاشتماله على ذكرالله والمعارف الالهيّة.

وذلک لأنّ الايمان الحقيقى هو النور الواقع فى القلوب بقدر انفتاح روزنة القلوب من أنوار تجلّى شموس صفاته وحقائق أفعاله للقلوب المشتاقة، فيكون وجوه قلوبهم الخالية من دنس حبّ الدنيا بسبب ذلک النور الى ربّها وحبيبها ناظرة، فانّ «الايمان يجرّ بعضه الى بعض» و «بالمعرفة يكتسب المعرفة»، فكلّما تليت على أصحابها الآيات أو تلوها أو ذكرالله أو ذكروه، زاد انفتاح روزنتها بقدر صدقها وشوقها ومناسبتها، فيزيد فيها نور الايمان فيزدادوا ايماناً مع ايمانهم.

﴿وعلى ربّهم يتوكلون﴾: يعنى فحينئذ على ربّهم يتوكّلون، لا على الدنيا وأهلها، فانّ من شاهد جمال الحق وجلاله بنور الايمان فقد استغرق فى بحر سطوات جلاله، فيكون توكلهم عليه لا على غيره، ومنهم ما وصفهم الله بقوله ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنّهم ملاقوا ربّهم﴾ (هود(١١): ٢٩) يعنى: إنّ المؤمن من يكون درجته درجة الملائكة المقرّبين الذين يلاقون ربّهم من فوقهم لا واسطة بينهم وبين ربّهم، وذلک لارتقائهم عن عالم الطبيعة بجناحى العلم والعمل الى جوار الله.

ومن العلامات المختصّة بهم ما ذكره تعالى مخاطباً لابليس اللعين: ﴿إنّ عبادى ليس لک عليهم سلطان﴾ (الحجر(١٥): ٤٢) وحكى أيضاً قول ابليس محارباً لله جلّت عظمته: ﴿إلّا عبادک منهم المخلصين﴾ (الحجر(١٥): ٤٠).

ومنها ما وصفهم بقوله تعالى ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ الى آخر السورة (الفرقان(٢٥): ٦٣-٧٧)

ومنها ماأشار اليه بقوله: ﴿إلّا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء(٢٦): ٩٨).

وهذه عمدة صفاتهم، لأنّ الأصل فى جميع الخيرات سلامة الصدر من الغلّ والغشّ والدغل والحسد والبغض والكبر والحرص والطمع والمكر والزنا والخديعة والنفاق وما أشبهها من الخصال المذمومة التى أكثرها ينشأ من التشبّه بأهل العلم فى الزى والمنطق من غير عرفان، وطلب الترفّع من غير استيهال وهو بذر النفاق والعناد ومادة السيئات.

ومنها الخوف والخشية كما فى قوله تعالى: ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ (الأنبياء(٢١): ٢٨) وقوله: ﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر(٣٥): ٢٨).

فهذه وما أشبهها خصال أولياء اللّه بحسب الملكات والأخلاق العمليّة .

وأمّا الأعمال والأفعال الواجبة أو المندوبة فجميعها يرجع الى تصفية القلب ، وهى أمر عدمى عبارة عن رفع المانع وازالة الحجاب عن الوصول الى الحق والحقيقة من الطبع والرين الحاصل فى مرآة القلب بحسب غبار الهيئات المرتفعة اليه من عالم الحواس ومعدن الوسواس .

وأمّا علاماتهم وخصالهم العلمية التى هى غاية قصودهم وثمرة وجودهم ؛ لأنّ الايمان والعرفان باللّه وصفاته وملائكته وأفعاله وكتبه ورسله واليوم الاخر هى الغاية القصوى والثمرة العليا من وجود الانسان وبقائه .

فمنها طريق تحصيلهم للمعارف وسبيل سيرهم الى الله ، وهو الصراط الذى وصفه اللّه بالمستقيم ، وقال تعليماً لعباده استدعاء ذلک من اللّه بقوله : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (الحمد(١) : ۶) .

وهو الصراط الذى سلكه جميع أنبيائه وأوليائه كما أشير اليه بقوله تعالى ﴿وهذا صراط ربّک مستقيما﴾ (الأنعام(۶) : ١٢۶) وقوله ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا اليک وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى﴾ (الشورى(۴٢) : ١٣) وقوله : ﴿كذلک يوحى اليک والى الذين من قبلک اللّه العزيز الحكيم﴾ (الشورى(۴٢) : ١٣) وقوله : ﴿وما أرسلنا من قبلک من رسول إلّا نوحى اليه انّه لا اله إلّا أنا فاعبدون﴾ (الأنبياء(٢١) : ٢۵) وقوله : ﴿إنّ هذا لفى الصحف الأولى * صحف ابراهيم وموسى﴾ (الأعلى(٨٧) : ١٨ـ١٩) .

وهو الطريق الذى لايتطرق اليه نسخ و تغيّر ، ولا فيه تخالف وتناقض ، لكونه من عند اللّه وبتوفيقه والهامه ، لا من جهة التقليد والتّعصب واتّباع الآباء وملازمة الأهواء ، لقوله : ﴿و لو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء(۴) : ٨٢) .

وهو مسلک التوحيد الذى سلكه أفضل الأنبياء عليه وعليهم السلام ومتابعوه وشيعتهم لقوله تعالى : ﴿قل هذه سبيلى أدعوا الى اللّه على بصيرة أنا ومن اتّبعنى﴾ (يوسف(١٢) : ١٠٨) .

وهو الطريق المستقيم الذى أمر اللّه نبيه أن يعلّم الناس سلوكهم ويهديهم اليه ويأمرهم باتّباعه ونهاهم عن سلوک طريق غيره ، وهو فى قوله تعالى : ﴿إنّ هذا صراطى مستقيماً فاتّبعوه ولاتتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتّقون﴾ (الأنعام(۶) : ١۵٣) .

وذلک لأنّ استقامة الطريق يفضى سالکه الى المقصد فى أقرب زمان، ولابدّ للسالک أن يتحرى أقرب الطرقات، فانّه أسهلها مسلکاً وأقربها وصولا و هو الذى لاعوائق فيه ولا عوج له، فلذلک ينبغى للقاصدين الى اللّه بعد تصفية نفوسهم عن درن الشهوات، والراغبين فى نعيم الاخرة فى دار السلام الذين يريدون الصعود الى ملکوت السموات والدخول فى زمرة الملائکة بالولادة الثانية أن يتحروا أقرب الطرق اليه و أسهلها مسلکاً و أوثقها اعتماداً کما فى قوله تعالى: ﴿أولئک تحروا رشدا﴾(الجنّ(۷۲): ۱۴).

ونحن نريد أن نبيّن الطريق المستقيم الذى أوصانا اللّه به وأمرنا باتّباعه على ألسنة أنبيائه صلوات اللّه عليهم ما هو وکيف ينبغى أن نسلکه حتى نصل الى ماوعدنا به ربّنا کما قال تعالى: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربّکم حقّا قالوا نعم﴾ (الأعراف(۷): ۴۴) ولکن لايمکننا بيان ذلک إلّا بکلام موزون وحکمة بالغة وبرهان نيّر و دلائل واضحة:

أمّا البرهان النيّر فبالنظر الى حقيقة الوجود وما يلزمه وما يبدأ منه، کما قال سبحانه: ﴿أولم يکف بربّک أنّه على کلّ شىء شهيد﴾.

وأمّا الدلائل الواضحة، فعلى مثل بيان اللّه وسنّة أنبيائه و أوليائه عليهم السلام بالوصف البليغ بسائر آيات اللّه فى الافاق وفى أنفسنا حتّى يتبيّن أنّه الحق، کما قال تعالى: ﴿إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار... لآيات لقوم يعقلون﴾(البقرة(۲): ۱۶۴) وقوله: ﴿و فى الأرض آيات للموقنين﴾ (الذاريات(۵۱): ۲۰)وفى قوله﴿وفى أنفسکم أفلا تبصرون﴾(الذاريات (۵۱): ۲۱)فاذا فعلوا ذلک فتحت أبواب العلوم المخزونة والأسرار المکنونة التى لايمسّها إلّا المطهّرون.

وممّا يجب أن يعلم أنّ کلّ من أراد أن يتّبع سبيل أولياء اللّه أنّه لاينبغى أن يتکلّم فى ذات البارى ولا فى صفاته ولا فى أفعاله من حيث هى أفعاله بالحزر والتخمين ولا قبل تصفية النفس، فانّ ذلک يؤدّى الى الشکوک والحيرة والضلال کما قال اللّه تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل فى اللّه بغير علم ولاهدى ولا کتاب منير﴾(الحجّ(۲۲): ۸).

ومن لطائف خواصّهم العلميّة أنّهم فى الکمالات العلميّة إمّا فى مرتبة التام بذاته وهى بحسب أرواحهم التى مرتبتها مرتبة العقول الفعالة ـ وإمّا فى مرتبة المکتفى بذاته ـ وهى بحسب نفوسهم التى فى درجة نفوس الأفلاک ـ بخلاف غيرهم من أولى العلوم، إذ لايمکنهم الاکتفاء فى علومهم بالأسباب الداخلية والمقوّمات الداخلية، فانّ علومهم ليست

من افاضة اللّه فقط بتوسط الملائكة النوريّة التى هى خزائن علم الله، بل يحتاجون فى انحفاظ علومهم الى أسباب خارجيّة، وأوضاع حسيّة، وأسانيد متقدمة، حتى أنّ فرض ارتفاع الأسانيد والأوضاع الخارجيّة الحسيّة التى كانت جملتها من الأمور المتغيّرة المتصرمة لبطت علومهم وزالت كمالاتهم.

فجميع المنتسبين الى العلوم التى هى دون علوم الأولياء والعرفاء ناقصون فى كمالاتهم العلمية، إذ ليسوا فى مرتبة التمام كالعقول القادسة والملائكة العلميّة الذين كمالاتهم بالفعل من كلّ الوجوه ولا كمال منتظر لهم وليسوا أيضاً فى مرتبة المكتفين بذواتهم و ذوات عللهم المقوّمة الداخلية كالملائكة العمّالة باذن اللّه فى تحريك الأجرام العالية واستخراج الكمالات النفسيّة من القوة الى الفعل، بل هؤلاء يكونون أبداً محتاجين الى المشايخ والأسانيد، كالأعمى الذى يحتاج أبداً الى قائد خارجىّ و الى ما يسند اليه فى سلوكه ومشيه.

ومعنى الوراثة فى «كون العلماء ورثة الأنبياء[1] صلوات اللّه عليهم أجمعين» هو أنّ علوم الأنبياء مستفادة من اللّه بلا مفيد بشرى والمعلّم الانسانى يعنى أنّ علومهم المختصّة بهم وبوراّثهم ما كانت فائضة على قلوبهم من اللّه تعالى، حتى لو قطع النظر عن أسباب التعاليم الخارجية والأسانيد المنفصلة لكانت علومهم بحالها كما كانت، بل لامدخليّة لخصوصيّة هذه النشأة الدنياويّة وغيرها من النشئات فى بقاء علومهم وثباتها، حيث ثبّتهم اللّه بالقول الثابت فى الحياة الدنيا والاخرة.

ومن علاماتهم العلمية كونهم موحدين لبارى جلّ اسمه توحيداً لايعرف كنهه غيرهم، إذ ليست وحدته تعالى من قبيل الوحدة العددية التى تنشأ منها الأعداد، ولامن النوعية والجنسية التى توجب الاشتراك، ولا من الشخصيّة التى توجب الانفصال عن الأمور الواقعة مع الشخص تحت كلّى، ولا هو واحد بالوضع ولا بالكيف ولا بالكم ولا بالاضافة- كما مرّ، فوحدته تعالى خارجة عن جميع أقسام الوحدة التى عرفها الخلائق، فهم الذين عرفوا نحو وحدته تعالى.

ومن دقائق علومهم معرفتهم للأسباب القصوى للموجودات، والغاية التى تنحو نحوها الممكنات.

ومنها معرفتهم الملائكة الروحانيين والجن والشياطين، كما مرّ ذكره.

---

١. الكافى، ج١، ص٣٢؛ الأمالى للصدوق، ص١١۶

ومنها معرفتهم لأصناف الناس ـ الشقى منهم والسعيد ـ ومعرفتهم غاية كلّ فعل وقول وعمل بحسب الدار الاخرة.

ومن خصائص علومهم التى يدركونها بصفاء قلوبهم كيفية نشو الاخرة والجنة والنار الجسمانيتين والروحانيتين، وكيفية توزع النفوس الى سكان كلّ منها.

ومن خصائص مشاهدتهم: يوم الحساب والميزان ـ كأنّ القيامة قد قامت فى حقّهم، وكأنّهم بعرش ربّهم بارزون ومشاهدون لأهل الجنة منعّمين وأهل النار معذّبين ـ كما جاء فى حديث حارثة لمّا سأله رسول اللّه ﷺ عن حقيقة ايمانه فأجاب بما أجاب.[1]

واليه أشار جل ذكره ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلّا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنّة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربّنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين﴾ (الأعراف(۷): ۴۷) وهم ﴿رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكراللّه﴾ (النور(۲۴): ۳۷) وهم الذين ﴿لايمسّهم السوء ولاهم يحزنون﴾ (الزمر(۳۹): ۶۱) وهم أولياء اللّه وعباده المخلصون الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، كما فى قوله: ﴿إلّا عبادك منهم المخلصين﴾ (ص(۳۸): ۸۳).

واعلم أنّ الاخلاص فى العمل بلاشوب غرض أو رياء لايتصوّر لأحد إلّا منهم ومن أتباعهم، لأنّه يتفرّع على المعرفة، وليس لغير العلماء الربانيين معرفة يقينية بأحوال المبدأ وصفاته وأفعاله، وإن كان قد أحكم سائر العلوم الغير الحقيقيّة، بل معارفهم باللّه على الظن والتخمين، أو مجرّد التّقليد، فاخلاصهم أيضاً اخلاص تخمينى أو تقليدى.[2]

فهذه جملة من خصال أولياء اللّه وخواصّهم وعلاماتهم، ويعرف منها صفات أضدادهم بأضداد صفاتهم، إذ الأشياء قد تعرف بأضدادها.

قيل لأميرالمؤمنين عليه السلام: «صف لنا العالم؟» فوصفه. فقيل: «صف الجاهل؟» فقال: «فعلت».[3]

فالمنافقون وأعداء اللّه وأولياء الشياطين صفاتهم بعكس هذه الصفات المذكورة رأساً برأس، يعرفها من يعرف هذه بالقياس، إلّا أنّا نذكر بعضاً منها صريحاً؛ لأنّها من جملة ما

۱. الكافى، ج۲، ص۵۴

۲. ومما يدل اغترار جماعة من الناس بتقليد الاباء والمشائخ من غير بصيرة ظناً منهم أنّ كلامهم مأخوذ من أحكام اللّه وتعويلا على ظواهر أقوالهم قوله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليه آبائنا واللّه أمرنا بها قل إنّ اللّه لايأمر بالفحشاء أتقولون على اللّه ما لاتعلمون﴾ (الأعراف(۷): ۲۸)- بخطه طاب ثراه- (من حاشية النسخة المطبوعة)

۳. نهج البلاغه، خطبه۲۳۵

عرّف اللّه بها الجاحدين والمنافقين، وكشف بها فضائحهم وجهلهم لعباده الصالحين، وبيّن وخامة عاقبتهم وسوء حالهم يوم الدين، ولما فيها من التنفر والتحذير عن الباطل للسالكين والتثبت والتقرير على الحق للمطيعين انشاء الله:

فمن علاماتهم ما وصفهم اللّه بازاء العلامة الأولى التى للأولياء فى قوله: ﴿وإذا ذكر اللّه وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالاخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾(الزمر(٣٩): ٤٥) وقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾(الحجّ(٢٢): ٧٢)فان الاعراض عن ذكر الحبيب الأول أول شاهد على كون المعرض عدواً لله ولياً لعدوه اللعين.

وهذا حال أكثر المغرورين المتجردين بعلم الأقضية والفتاوى، المعرضين عن علم التوحيد، المكبين على غيره من العلوم التى يكون منشأ الشهرة والجاه عند الخلق، كما فى قوله تعالى: ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾(المؤمنون(٢٣): ٧٠). وقد ورد فى الحديث عن النبى ﷺ: «إنّ من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلّا العلماء بالله، فاذا نطقوا به لم ينكره إلّا أهل الغرة باللّه».[١]

ومنها ما وصفهم اللّه فى قوله: ﴿وإذا قيل له اتق اللّه أخذته العزة بالاثمّ فحسبه جهنم﴾(البقرة(٢): ٢٠٦)، وهذا أيضاً حال أكثر الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من غير وجهه، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب اللّه ليحكم بينهم ثمّ يتولّى فريق منهم وهم معرضون﴾(آل عمران(٣): ٢٣)، استنكف عن النصيحة ومنعته الانفة وأخذته العزّة التى زعمتها ثابتة لنفسه، لأجل كونه مغروراً باللّه تعالى، معتقداً أنّه من العلماء، وأنّه اللائق بالاقتداء والحرى بأن ينصب فى مقام النصح والارشاد لغيره، لا أنّ غيره يرشده، فيغتاظ من هذا.

ولم يعلم أنّ ما يعلمه من غير جهة التى وليها أهل الحق وجوههم شطرها وطريقة المستقيم الذى سلكه العلماء باللّه والأتقياء ليس له طائل ولايؤدى الى حاصل، بل يكون بذر النفاق واللداد ومنبت الكبر والعناد، وسيلعب به الشكوك حيراناً و فات منه الكمال واستعداد تحصيله جميعاً، وخسر دنياه وأخراه رأساً ويصير من ﴿الذين ضلّ سعيهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾(الكهف(١٨): ١٠٤) ﴿وغرّهم فى دينهم ما

١. كنز العمّال، ج١، ص١٨١، ح٢٨٩٤٢

كانوا يفترون﴾(آل عمران(۳) : ۲۴) .

﴿فكيف إذا جمعهم اللّه ليوم لاريب فيه ووفيت كلّ نفس ماكسبت﴾ من مزرعة الدنيا ـ إمّا من الدرجات العلى أو الدركات السفلى ﴿وهم لايظلمون﴾ ، بوضعهم فى غير موضعهم بأن ينزلّ الجاهل الشرير فى موضع العالم النحرير ويسكن أهل الدركات فى الدرجات ، وأهل الدرجات فى الدركات ، كما فى هذه الدار ، لانّها دار اشتباه بخلاف اليوم الاخر ﴿لاظلم اليوم﴾ ؛ لأنّه ﴿يوم الفصل﴾ باعتبار وإن كان ﴿يوم الجمع﴾ باعتبار آخر .

ومنها ما وصفهم اللّه تعالى بقوله : ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل اللّه قالوا بل نتّبع ماوجدنا عليه آبائنا أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير﴾(لقمان(۳۱) : ۲۱) الاشارة فيه أنّه لاعبرة فى أمر الدين بتقليد المشايخ السابقين والاباء الماضين واتباع مذهبهم ، بل الواجب على العبد اتباع ما أنزل اللّه اليه بصدق النية فى السعى و الطلب ، وخلوص الطوية فى الاجتهاد والعمل وقطع النظر عن تقليد الأسلاف واتباع الأخلاف ، فانّ الايمان نور من اللّه يقذف فى قلب المؤمن بواسطة المجاهدة والرياضة ، ويخرجه من ظلمات التقليد .

وفى قوله : ﴿أو لو كان آبائهم لايعقلون شيئاً﴾ ، اشارة الى أنّ آبائهم من أهل الأهواء والبدع الذين لايعقلون شيئاً ولايهتدون سبيلا ، وإنّهم ميّتون لايعقلون شيئاً ، و الميت لايصلح للاقتداء به والاهتداء ، بل المتبع فى المعارف الالهيّة هو الواردات الكشفيّة عقيب الأعمال الفرعيّة ، والمجاهدات الدينيّة الحاصلة بنور المتابعة لروح الانسان الكامل المتحد نوره بنور العالم العقلى المصون عن الفناء والموت ، كما قيل : «أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لايموت» .[1]

وفى فحوى الاية الاشارة الى أنّ من يكون على جادة الحق وقدمه ثابتة على جادة الشريعة ومعرفة الطريقة وسلوک مقامات الحقيقة فيجوز الاقتداء به ، إذ هو من أهل الاهتداء الى عالم الحقيقة دون من يدعى الشيخوخيّة بطريق الارث من الاباء والمشايخ ، ولاحظّ لهم عن طريق الاهتداء به ، فانّهم لايصلحون للاقتداء .

وهذا كما نجد عند التعمق حال أكثر المدعين للشيخوخة فى هذا الزمان ـ أصلح اللّه بالهم وسدّد أقوالهم ، ثمّ إذا صادف بعضهم من عنده علم من الكتاب استنكفوا عن التعلم منه لمّا رأوا ما عنده مخالفاً لما أخذوه من معلميهم تقليداً أو تعصبّاً ، ولمّا لحقهم بذلک

۱ . فيض القدير شرح الجامع الصغير ، ج۳، ص۵۲۴ ؛ تفسير الآلوسى ، ج۵، ص۸۳

من ذلّ التعلّم واتّضاع القدر عند العامّة والمريدين.

كما أشار اليه تعالى بقوله: ﴿و إذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل اللّه و الى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آبائنا أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ولايهتدون﴾(المائده(٥): ١٠٤)وقال سبحانه: ﴿وكذلک ما أرسلنا من قبلک فی قرية من نذير إلّا قال مترفوها إنّا وجدنا آبائنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون*قال أولو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آبائكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون*فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾(الزخرف(٤٣): ٢٣ـ٢٥).

فما أسخف عقلهم حيث تركوا ذكر اللّه ومعارف الحقائق خوفاً من اتضاع قدرهم عند الجهلة، فرجح عندهم ارتفاع الشأن عند الناقصين من العباد على علو المنزلة عند اللّه ومجاورة الملائكة المقرّبين، فتباً لجاههم الحقير وسحقاً لحظهم اليسير، أما تلوا قوله سبحانه: ﴿وان كلّ ذلک لمّا متاع الحياة الدنيا والاخرة عند ربّک للمتقين *ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين*وإنّهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنّهم مهتدون﴾ (الزخرف(٤٣): ٣٥ـ٣٧).

ومنها ماضرب اللّه لهم مثلا بقوله: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلّادعاءاً ونداءاً صمّ بكم عمى فهم لايعقلون﴾(البقرة(٢): ١٧١) هذه الحالة لهم أيضاً قريبة المأخذ من الحالة السابقة، والغرض أنّهم لايزالون يتبعون ويحدثون ظواهر الألفاظ ولايرون بواطن المعانى والحقائق، ولم يعلموا بعد ـ مع أنّهم سمعوا مراراًـ أنّ امتياز الانسان عن سائر الحيوانات باستنباط الحقائق والمعارف، لاتتبّع الألفاظ وتصحيح العبارات من غير ارتقاء عن مضيق المحسوسات ومحبس الحيوانات واصطبل الدّواب الى فسحة الأنوار الالهيّة وعالم المعارف العقلية الالهاميّة ومستوكر الطيور السماوية.

فهم أبداً واقفون فى عالم الألفاظ و الصور و لن يقصدوا الى معرفة النفس و ما فوقها، ولا الى اصلاح القلب الذى هو محل النطق الباطنى الذى يخص به الانسان من سائر الحيوانات، و هو منبع المكاشفات والمكالمات مع الحق وقد ذمّ اللّه تعالى الناقصين الذين ليس لهم درجة المكالمة الباطنية مع الحق لكونهم فى مرتبة الحيوان الأعجمى بقوله: ﴿لايكلّمهم اللّه ولاينظر اليهم يوم القيامة﴾(آل عمران(٣): ٧٧) ومدح رسول اللّهﷺ خواص أمّته وأوليائهم وحكمائهم بأنّهم محدثون مكلّمون.

وليس المراد من هذا التّكلم والتّحدث ما يكون بالحديث الظاهرى والكلام الحسى ـ

الذى آلته جرم أحمر لحمى مركّب من الأخلاط، فانّه من الدّنيا ولا يكون شىء من الدنيا ممدوحاً ولامحبوباً إلّا بقدر ما يعبّر به ويجعل الزاد للاخرة، فانّها طريق الاخرة، بل الدنيا ومافيها مبغوضة ممقوتة ملعونة عند اللّه وعند أوليائه كما قال ﷺ: «الدنيا ملعونة، ملعون مافيها»، وقوله ﷺ: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة».[1]

إنّما المراد من المكالمة فى قول اللّه ﴿لايكلّمهم اللّه﴾، وفى قول رسول اللّه ﷺ: «إنّهم محدّثون مكلّمون»، المكالمة الحقيقية بين اللّه وبين خواصّ عباده، وهى الافاضات العلميّة المتواردة من الحقّ فى المقاصد الربوبية عقيب التأملات القدسية الاستعدادية من العبد فى المطالب الحكميّة الايمانية بتوسط بعض ملائكة اللّه العقليّة، إمّا صريحاً مشاهداً فى عالم المشاهدة البصرية والسمعية كما للأنبياء، أو لا كما لغيرهم.

أو لاترى أنّ معنى «التكلم» فى حقّه تعالى عند أصحابنا الاماميين ـ رضوان اللّه عليهم ـ هو ايجاد القرآن أوّلا فى قلب جبرئيل عند نزوله فى السماء الدنيا، ثمّ منه على قلب رسول اللّه ﷺ، و منه الى قلوب حكماء أمّته، فالاشارة فى هذه الاية أنّ مثل الذين كفروا الان كان فى الحقيقة وفى عالم الأرواح عند عهد الميثاق إذا خاطبهم الحق بقوله: «ألست بربّكم»، كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلّادعاءاً و نداءاً، لأنّهم كانوا فى الصفّ الأخير، إذ الأرواح جنود مجنّدة[2] فى أربعة صفوف:

فكان فى الصف الأوّل أرواح الأنبياء ﷺ، وفى الثّانى أرواح الأولياء والشهداء، وفى الثالث أرواح المؤمنين، وفى الرابع أرواح الكافرين، فأحضرت الذرات التى استخرجت من ظهر آدم من ذرياته و أقيمت كلّ ذرة بازاء روحها، فخاطبهم الحق: ﴿ألست بربكم﴾.

فالأنبياء سمعوا كلام الحق كفاحاً بلاواسطة وشاهدوا أنوار جماله بلا حجاب، ولهذا استحقوا هاهنا النّبوة والرسالة والمكالمة والوحى ﴿اللّه أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

والأولياء سمعوا كلام الحق وشاهدوا أنوار جماله من وراء حجاب أرواح الأنبياء، ولهذا احتاجوا هاهنا بمتابعة الأنبياء، فصاروا عند القيام بأداء حق متابعتهم مستحقين للالهام، و الكلام من وراء الحجاب.

و المؤمنون سمعوا خطاب الحق وراء حجاب أرواح الأنبياء و حجاب أرواح الأولياء، و

---

١. الكافى، ج٢، ص١٣٠، ح١١

٢. الأمالى للصدوق، ص٢٠٩؛ علل الشرايع، ج١، ص ٨٤، ح٢

لهذا هاهنا آمنوا بالغيب وقبلوا دعوة الأنبياء، وأن يبلغهم من وراء حجاب رسالة جبرئيل وحجاب رسالة الأنبياء عليهم السلام، فقالوا: ﴿سمعنا وأطعنا﴾. وممّا يدلّ على هذه المراتب قوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يكلّمه اللّه إلّا وحياً﴾ يعنى: الأنبياء ﴿أو من وراء حجاب﴾ يعنى: الأولياء ﴿أو يرسل رسولا﴾ (الشورى(٤٢): ١٥) يعنى المؤمنين.

وأمّا الكفار فلمّا سمعوا من ذرات المؤمنين من وراء الحجاب لمّا قالوا: «بلى» ﴿فقالوا بالتقليد والرياء﴾: «بلى» ولهذا هاهنا قلدّوا ما ألقوا عليهم آبائهم لقوله: ﴿إنّا وجدنا آبائنا على أمّة و إنّا على آثارهم مقتدون﴾ (الزخرف(٤٣): ٢٣).

فلمّا تعلّقت أرواحهم بالأجساد وتكدّرت بكدورات الحواس والقوى النفسانية، و أظلمت بظلمات الصفات الحيوانية وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ـ من التمتعات البهيمية والحركات السبعية والأخلاق الشيطانية واللذات الجسمانية ـ فأصمّهم اللّه وأعمى أبصارهم، فهم الآن «صمّ» عن استماع دعوة الأنبياء بسمع القبول، «بكم» عن قول الحق والاقرار بالتوحيد والمعارف اليقينية، «عمى» عن رؤية الآيات والمعجزات الباطنية، فهم لايعقلون، ولا يعقلون أنّهم صمّ بكم لايعقلون، إذ لم يتصوّروا من «الصمم» إلّا ما يعرض القوة السمعية الحيوانية، ولا عن «العمى» إلّا ما يعرض للقوة العينية الحيوانية، ولا من «العقل» إلّا ما للعوام من تدبير المعاش بالحيل الشيطانية.

خاتمة

اعلم أيّها الناظر فى هذا المسطور والراغب فى استجلاء أسرار هذا المزبور و استكشاف حقائقه ومبانيه واستيضاح مقاصده ومباديه عليك أن تدبّره حرفاً حرفاً وكلمة كلمة، جامعاً لنكتة المبثوثة فيه باضافة خواتمها الى سوابقها، والحاق متوسطات فوائدها بأوائلها ولواحقها، حتى إذا انتظمت فى ذهنك نشأتها المعنوية، وتشخّصت صورتها الروحانية انظر اليها بعين الانصاف والاستبصار نظرأولى الأيدى والأبصار، فعند ذلك تعلم ما فى هذا المختصر من بدايع الأسرار وغرائب الآثار، ونفائس العلوم والاشارات ولطائف الفهوم والالهامات.

فما وجدت من فائدة وخير فاشكر لله و أحمده عليه، وما رأيت من نقص وخلل ـ لاتجد له محملا صادقاً أو مخلصاً فى زعمك موافقاً ـ فان كان من باب اللفظ مجرّداً فأصلحه

كرماً و جوداً، و إن كان من باب المعانى المطلوبة فذره فى بقعة الامكان ما لم يزدك عنه قائم البرهان، وإن لم يمكنك تلقّيه بالايمان والتسليم فاستحضر قوله تعالى: ﴿وفوق كلّ ذى علم عليم﴾ (يوسف(١٢): ٧٦) فانّ العلم بكتاب اللّه أوسع من أن تحضره حدّ معين أوتضبطه قانون مبيّن ـ هذا ـ مع أنّ البشريّة محل النقائص، فما كان من نقص وعيب فمنها، لا من الوارد من عالم الغيب.

ومع أنّ هاهنا موانع غير ماذكرت: من ايراد كلام ملائم لطبايع الأنام.

ومنها إنّى لم أؤثر أن أسلک فى الصنايع العلمية ـ وخصوصاً فيما يتعلّق بتفسير كتاب الله ـ مسلک أهل البحث والجدل، لاسيّما ورد فى الكتاب والسنّة التحذير عنه، كقوله تعالى: ﴿ماضربوه لک إلّا جدلا﴾ (الزخرف(٤٣): ٥٨) وفى الحديث عن النبى ﷺ: «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلّا أوتوا الجدل».[١]

ومنها طلبى للتخليص والايجاز فى الكلام، والتقريب الى الأفهام، والاحتجاج فى كلّ معنى ومرام يوجب الأسهاب والأملال، فينقطع سير الأفكار دون الوصول الى التّمام.

ومنها أنّ قبلة مخاطبى فى معانى القرآن هم المحقّقون من أهل اللّه خاصّة، أو المحبّون لهم والمتشبّهون بهم، والمؤمنون بأحوالهم من أهل القلوب المنوّرة الصافية، والعقول القوية النافذة فى أقطار الملكوت الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشى دعاءاً عقليّاً بلسان ملكوتى يريدون وجهه، يسمعون القول فيتّبعون أحسنه بصفاء طويّة وحسن اصغاء بعد تطهير قلبهم من صفتى الجدل والنزاع ونحوهما، متعرضين لنفحات جود اللّه فى أيّام دهرهم، بل حرمت مناولة للموصوفين بأضداد هذه الصفات.

فمن كان حاله ما وصفناه فلايحتاج الى التقريرات النظرية وتكرير المقدّمات المتداولة الجمهوريّة التى أكبّ عليها الاشتهار، لأنّها ممّا وقع عليها له المرور فى أوائل التحصيل والانزعاج من المقام قبل أن وقع فى الطريق المستقيم الى اللّه الملک العلام، لقوله: ﴿إن منكم إلّا واردها كان على ربّک حتماً مقضياً * ثمّ ننجّى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا﴾ (مريم(١٩): ٧٢).

وهكذا كان حال شيخ السالكين الى اللّه الجليل ابراهيم الخليل ـ على نبيّنا وآله وعليه السلام ـ حيث اشتغل أوّلا بصفة المحاجّة على الحق والمجادلة عليه مع قومه: ﴿ألم تر

١. مسند أحمد، ج٥، ص٢٥٢؛ سنن ابن ماجه، ج١، ص١٩، ح٤٨

الى الذی حاجّ ابراهیم﴾(البقرة(۲):۲۵۸)ثمّ أخذ فی طریق البرهان والکشف الذی حال السالک فی نفسه ـ لا بالقیاس الی غیره ـ فوقع له المرور علی مراتب الوجود حتّی وصل بعد التجاوز عنها الی الحق المعبود قائلا : ﴿وجّهت وجهی للذی فطر السموات والأرض﴾ (الکهف (۱۸) : ۲۹) .

فهو إمّا مشارک مطّلع یعرف صحّة مایخبر به بما عنده من النور الذی یسعی بین أیدیهم وبأیمانهم ، وإمّا مؤمن صحیح الفطرة صافی الایمان یشعر بصحّة ما سمع من وراء ستر رقیق ، لکونه مستعداً للکشف ، متهیّئاً للتلقی ، منتفعاً بما یسمع ، مرتقیاً بنور الایمان الی مقام البیان ، فلهذا وقع منّا الاکتفاء بالتنبیه والتلویح ورجّحناهما علی البسط و التصریح ، تأسّیاً لـمّا رجّحه اللّه تعالی و اختاره فی کلامه المتین ، واقتداء بما أمر به سیّد المرسلین صلوات اللّه علیه وآله أجمعین حیث قال : ﴿قل الحق من ربّکم فمن شاء فلیؤمن ومن شاء فلیکفر﴾ (الکهف(۱۸) : ۲۹) .

ولم یأمره باقامة المعجزة واظهار الحجّة علی کلّ مایأتی به ویخبر عنه ولا بتحریر الأدلّة والقیاسات وتقریر الحجج واستقصاء المقدّمات مع تمکّنه ﷺ من ذلک لکونه صاحب الحجج الالهیّة والأدلّة الباهرة والایات المحقّقة الظاهرة ومن أوتی جوامع الکلم ومنح علم الأولّین والآخرین ، بل إنّما وقع ذلک منه فی بعض الأحایین مع بعض الناس فی أمور یسیرة بالقیاس الی غیرها .

والمنقول أیضاً عن أوائل الحکماء ـ الذین اقتبسوا أنوار علومهم من مشکوةنبّوة الأنبیاء ـ نحو ما ذکرنا حیث کان دأبهم الخلوة والریاضة والاشتغال علی مقتضی قواعد شرایعهم التی کانوا علیها ، فمتی فتح لهم شیء من العلوم الربّانیة ذکروا منه للتلامیذ والطلبة إن اقتضت المصلحة بلسان الخطابة أولّا ، ثمّ إن توقّفوا علیه أقاموا لهم البراهین و الحجج ، وربّما شوّبوا کلامهم بنوع من الجدل لمناسبة الطبایع الیه ابتداءاً کما أمر به تعالی نبیّه ﷺ فی قوله تعالی : ﴿أدع الی سبیل ربّک بالحکمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتی هی أحسن﴾ (النحل(۱۶) : ۱۲۵) .

وکذلک ذکر الشیخ الرئیس فی المقالة السّابعة من الهیّات الشفاء بقوله : «إنّ الحکمة کانت فی قدیم مااشتغل بها الیونانیون خطابیة ، ثمّ خالطها جدل وکان السابق الی الجمهور من أقسامها هو القسم الطبیعی ، ثمّ أخذوا یتنبّهون للتعلیمی ، ثمّ الالهی» . کلّ ذلک عنایة

من اللّه تعالى فى شأن عباده لأجل تكميلهم وارشادهم بحسب التدرّج فى التعليم والهداية من الأسهل الى الأصعب، الى أن وقع الانتقال عنه الى ما فوقه، والتوجه لطلب معرفة جلية الأمر من جناب الحق بالرياضة وتصفية الباطن، ولهذا كان لهم انتقالات من بعضها الى بعض.

وقال معلم اليونانيين أرسطو: «إنّا ما ورثّنا من الأقدمين إلّا ضوابط غير مفصلة وأمّا تفصيلها وتمييزها فذلک شیء قد کددنا فيه أنفسنا وأسهرنا فيه أعيننا حتّى استقام الأمر»

وقيل: لكلّ سلف سبق حق، ولكلّ خلف قدم صدق، فالمتقدّمون اجتهدوا فى التأسيس، والمتأخّرون بذلوا وسعهم فى التّخليص والتجريد، وكما أنّ العلوم العقليّة كملت شيئاً فشيئاً الى أن بلغ تمامها فى عهد أرسطو فكذلك علم التوحيد وعلم طريق الآخرة اللّذين يدور عليهما علوم جميع الأنبياء والأولياء ـ سلام اللّه عليهم أجمعين ـ ممّا أخذ فى الاستكمال شيئاً فشيئاً من لدن آدم عليه السلام حتى تمّ وكمل بنائه ببعثة نبينا صلى الله عليه وآله وبنزول القرآن على قلبه ليثبت به فؤاده.

فعلم ممّا ذكر أنّ علم التّوحيد والنبوة وعلم المبدأ والمعاد ممّا قد بلغ غايته وتمامه بوجود الخاتم صلى الله عليه وآله وبانزال القرآن الذى كان خلقه صلى الله عليه وآله لقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ (المائدة(٥): ٣) واليه الاشارة فيما روى عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «كان بنيان النبوة قديماً وبقى موضع لبنة فانطبقت موضعها»، وفى رواية: «فكنت أنا تلك اللبنة». [١]

وبالجملة لم يزل بناء أمر الأنبياء والأولياء والحكماء على تصفية الباطن وتهذيب السرّ بالمكاشفات الحقّة الالهيّة والمشاهدات الباطنية، وإنّما انتشرت صنعة الجدل بعد أرسطو فى عهد أتباعه المتّسمين بالمشّائين واستمرّت الى الان، حتى أنّ أكثر المتأخرين المشهورين بالعلم والحكمة والحال زعموا أنّ مناط الوصول الى الحق المتعال هو الاطلاع على صنعة الكلام والمباحثة والغلبة فى البحوث على الخصام والأفحام، أو علم الفتاوى والحكومات التى يستعين بها القضاة و الحكّام فى الأحكام. وأمّا علم طريق الاخرة وما سمّاه اللّه فى كتابه فقهاً وحكمة وعلماً ونوراً فقد اندرس بين الخلق مطوياً، بل صار نسياً منسياً.

---

١. عوالى اللئالى، ج۴، ص١٢٢؛ مسند أحمد، ج۵، ص ١٣٧؛ تفسير ابن عربى، ج١، ص٣٩٧

فأقلّ ما يجب للطلبة والمشتغلين بالعلوم الدينية أن يحسنوا ظنّهم بالمستضيئين بنور الحق، المهتدين بهداه، السالكين على منهاج الشريعة الحقّة النبويّة، الآخذين عن ربّهم بواسطة مشكوة الرسالة الملكيّة والبشريّة، لابواسطة أسباب كونية وسابقة آلات تعليميّة.

ولايظنّ أحد من الناظرين أنّه من شرط كلّ علم أن يؤخذ من الأستاذين أو يتلقف بالأسانيد والنقول من المشايخ والمعلّمين ـ كلّا ـ وقد نبّه الحق سبحانه على هذا الأمر بكشف حال نبيّه صلى الله عليه وآله في سلوكه بما قال سبحانه: ﴿ما كنت تدرى ما الكتاب ولاالايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا﴾(الشورى(٤٢): ٥٢)وبقوله جلّ ذكره﴿ما كنت تتلوا من كتاب ولاتخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون*بل هو آيات بيّنات فى صدور الذين أوتوا العلم﴾(العنكبوت(٢٩): ٤٨ـ٤٩)، فمثل هذا الذوق التام يسمّى علماً حقّاً ونوراً صدقاً، فانّه كاشف سرّ الغيب ورافع كلّ شكّ وريب.

ومن حصر العلوم الاعتقادية على المنقول من المشايخ والمجتهدين أو المأخوذ من الأساتيد و المعلّمين فليس لنا معهم كلام، ولابهم اعتداد، بل هم فى واد و نحن فى واد، واللّه الهادى الى طريق الرشاد و السداد، وبيده أزمّة مصالح العباد، وصلى اللّه على محمد الهادى الى سبيل المبدأ والمعاد، وآله المعصومين عن الخطاء والفساد، فى العمل و الاعتقاد.

كتبه مؤلّفه الفقير محمد بن ابراهيم الشهير بالصدر الشيرازى أوتى كتابهما بيمينهما حامداً مسلماً مستغفراً.